

العظيم الموسوم بـ « الأغانى » القى سلخ في جمه وتأليفه على ما قال خنين سنة ، لن أعظم الكنوز الأدبية قيمة ، وأحفظها مادة ! وكفاء من سمو النزلة ومزيد الاعتبار أن الصاحب بن عباد — وهو من هو — « كان في أسفاره وتنقلاته يستصحب حمل ثلاثين مجلداً من كتب الأدب ليطلعها ، فلما وصل إليه كتاب الأغانى لم يكن بعد ذلك يستصحب سواء لاستغفانه به عنها ! » (١) وكان الصاحب هذا يقول : « لقد اشتملت خزانتى على مائتين وستة آلاف مجلد (٢) ، ما منها ما هو سميرى غيره (أى غير كتاب الأغانى) ولا راقنى منها سواء ... » (٣)

وكان عضد الدولة « لا يفارقه في سفره ولا حضره ، ولقد كان جليسه الذى يأنس به ، وخذنه القى يرتاح إليه » (٤) ولأبى الفرج كتب عديدة أخرى ذكرها مترجموه ورواة أخباره . ضاع أغلبها ، فقاتنا بضياعها من الحسارة بما لا يمكن التعويض عنه !

ولسنا في مقام التبسط في ذكر ترجمته ، فذاك أمر معروف مشهور ، وإنما اكتفينا بالتزويه بكتابه الأغانى ، لباله من الخطر في المصومة التى أشرنا إليها . أما من أراد الوقوف على أخبار أبى الفرج ، فعليه بها مفصلة في « تصدير » المجلد الأول من الأغانى المطبوع في دار الكتب المصرية . فيها كل الغناء وما لا يند من النص عليه ، هو أن أبى الفرج توفى في أواسط المائة الرابعة للهجرة (أى في سنة ٣٥٦ للهجرة) ، وهى المائة التى ازدهر فيها الأدب العربى ، واستقام أمره ، واتسمت مادته

(ج .) المصومة

والمصومة التى سنذكرها ، تختلف عن كثير من المصومات لأنها جرت بين شخصين باعد بينهما الزمن ! فقد ذكرنا من قبل أن ابن خرداذبة نادم للمتمد الخليفة العباسى ، وخص به ، وكانت وفاة المتمد في سنة ٢٧٨ هـ . فيكون ابن خرداذبة من أبناء المائة

(١) وفيات الأعيان (١ : ٤٧٥)

(٢) جاء في « مختار الأغانى في الأخبار وانتهائى » لابن منظور (٢ : ١) قول الصاحب : « ولقد اشتملت خزانتى على مائة ألف وسبعة عشر ألف مجلد . . . » وهى رواية تختلف عن التى أوردناها . ولعل هذه الرواية أقرب إلى الحق وإن كان يرى فيها أيضاً مبالغة

(٣) سجع الأديباء (٥ : ١٥٠) مطبوع

(٤) مختار الأغانى (١ : ٣)

٤ - ابن خرداذبه

للأستاذ كوركيس عواد

(تمة)

٦ - المصومة بين ابن خرداذبه وأبى الفرج الأصفهاني

(١) تمهيد

كان الأستاذ كامل كيلانى قد أحسن غاية الإحسان بنشره بحوثاً طليئة في وصف بعض « المصومات » أو « المناظرات » الأدبية القديمة (١) التى دارت رحاها بين طائفة من أكابر العلماء ، وكان لها شأن في توجيه الرأى الأدبى في تلك الأزمنة النابرة . وما من شك في أن هاتيك المصومات تمثل لنا لونا من ألوان الثقافة ، وتكشف عن منحنى من منحى المجتمع ، كما أنها توضح لنا بأجلى بيان ما كان يضطرم أحياناً في نفوس بعض الأديباء من حيرة للتنافس ، وميل إلى الظهور والتصدر ، وانسياق لحوامل الحقد والاضغينة ؛ وتقصح لنا عما كانت تنظوى عليه أخلاق بعضهم من كبر أو مكابرة ، وعنت أو دهاء ... وهما يمكن من أمر ، فإن تلك المصومات صفحة أدبية رائعة الجمال ، إذ شحذت مسطروها أذهانهم لإحراز الفوز ، وأفرغوا ما في وسعهم من الأداة والبيانات التى كانت تتجاوب أسداؤها بينهم ، وتتدافع تدافع السيل العرم ، لتتال مكانها من الظفر !

ولقد وقفنا على شئ يقرب من ذلك ، تشب بين اثنين من أشهر الكتبة الأقدمين ، وهما ابن خرداذبه وأبى الفرج الأصفهاني . وإذا تكلمنا على الأول منهما بما صرح بك تفصيله ، فلنقل كلمة وجيزة نهدبها موقفه من المصومة ، فنقول :

(ب .) أبى الفرج الأصفهاني

إن شهرة أبى الفرج البعيدة ، تنبى عن التعريف به . وكتابه

(١) أظن « للتخلف » في أجزاء متفرقة من سنة ١٩٢٩ و ١٩٣٠ و ١٩٣١ . حيث أوردت هناك أخبار ست مناظرات جرت بين المصنفين والحواريزى ، وبين السكائى وسيدويه ، وبين الثنى وأبى فراس ، وبين الثنى وإن حنيفة ، وبين الثنى والمصنف ، وبين الثنى وداوى البطة . ونحن إذ نل هذه المناظرات جمت في كتاب قائم بنفسه

الثالثة للهجرة ، ولعله تعداها فعاش بعض السنين من المائة الرابعة
أما أبو الفرج الأصفهاني ، فقد وُلِدَ سنة ٢٨٤ ومات سنة
٣٥٦ للهجرة . فهل يكون قد أدرك في أوائل شبابه شيخوخة
ابن خرداذبة؟ وهل يكون قد حصل بينه وبينه تنافر وتباغض
أدّى بأبي الفرج إلى أن يقف موقفه الريب بإزاء زميله على
ما سنوخته؟

فإذا طالعت كتاب « الأغانى » لأبي الفرج ، ألفيته يذكر
ابن خرداذبة في مواطن عديدة منه ، ويستشهد بأقواله ولكنه
لا يذكره إلا ليشبهه ، ويحط من قدره ، ويجرده من كل حسنة سواء
أكان لتلك كله موجب أم لم يكن ! وهو لا يروى قولاً من أقواله
إلا ليردّ عليه ويضعفه ويتمدّ تزييفه ! فهو على ما يبدو ظاهر
التحامل . على أننا لا ندرى ما مبلغ الصحة في ما حكاه عن
ابن خرداذبة ، ولا اللوامح الحقيقية التي حملته على أن يشدد
النكير على صاحبه ، لأن مؤلفات ابن خرداذبة التي ندد بها وانتقد
أقوالاً منها قد ضاعت بأجمعها ! ولهذا ، نرانا في هذه الخوصومة
سنصنئ - على الرغم منّا - إلى شهادة جانب واحد ! وللتاريخ
أن يحكم على صحة هذه الشهادة ، ولعل الأيام تكشف لنا مصنفات
ابن خرداذبة ، فنعود نستمع إلى أقوالها ، وقد ينجلي الأمر
إذ ذلك وتوضح الحقيقة !

وإليك أقوال أبي الفرج في خصمه ، استخلصناها من
أما كن مختلفة من كتاب الأغانى :

قال في (٥ : ٣ من طبعة الساسى ، أو ٥ : ١٥٦ من طبعة
دار الكتّاب المصرية)^(١) ما هنا بحرفه :

« وذكر ابن خرداذبة ، وهو قليل التحصيل لما يقوله ويضمنه
كتبه ، أن سبب نسبته (أى نسبة إبراهيم اللوصلى) إلى الموصل ،
أنه كان إذا سكر كثيراً ما يفتى على سبيل الوكع :

أماجت من طرق موصل أحمل قلل تخمرياً
من شارب الملوك فلا بُدّ من سُكُرياً

وما سمعت بهذه الحكاية إلا عنه ؛ وإنما ذكرتها على غثائها
شهرتها عند الناس ، وأنها عندهم كالصحيح من الرواية في نسبة

إبراهيم إلى الموصل ، فذكرته دالاً على عواره « ١٠١ .

وقال في (١ : ١٨٠ س ، أو ١ : ٣٦٦ د) :

« وذكر ابن خرداذبة أنه (الكلام على معبد للمنى) غنى
في أول دولة بنى أمية وأدرك دولة بنى العباس وقد أصابه الفالج
وارتمس وبطل ، فكان إذا غنى يضحك منه ومهزأ به . وابن
خرداذبة قليل التصحيح لما يرويه ويضمنه كتبه . والصحيح
أن معبداً مات في أيام الوليد بن يزيد بدمشق وهو عنده . وقد
قيل : إنه أصابه الفالج قبل موته وارتمس وبطل صوته . فأما
إدراكه دولة بنى العباس فلم يروه أحد سوى ابن خرداذبة ، ولا قاله
ولا رواه عن أحد وإنما جاء به مجازفة « ١٠١ .

ونظير ذلك قوله في (٦ : ١٥٠ س ، أو ٦ : ١٧٣ د) :

« وذكر ابن خرداذبة ، أنه [يقصد يحيى الكلى] مولى
خزاعة . وليس قوله مما يحصل ، لأنه لا يستمد فيه على رواية
ولا دراية ! ومثله قوله (١٣ : ١٥٤ س) :

« ويزعم ابن خرداذبة ، أن الصنعة فيه [في بيتين من الشعر
أوردتها الأصفهاني] ليزيد^(١) وليس كما ذكر ، وإنما أراد أن يوالى
بين الخلفاء في الصنعة ، فذكره على غير تحصيل ، والصحيح ،
أنه لمعبد ... »

وشبيه به ما رواه في (١٠ : ١١٥ س) :

« وذكر ابن خرداذبة ، وهو ممن لا يحصل قوله ولا يستمد
عليه ، أنه [أى علوه للمنى] من أهل يثرب ، مولى بنى أمية «
أو ما قاله في (٨ : ١٥٦ س ، أو ٩ : ٢٧٦ د) :

« وعن دونت صنعت من خلفاء بين العباس ، الواقف بالله ،
ولم نعلمه حكي ذلك عن أحد منهم قبله ، إلا ما قدمنا سوء المهنة
فيه عن ابن خرداذبة ، فإنه حكي أن لسفاح والنصور وسائرهم
غناء ، وأتى فيها بأشياء غثّة ، لا يحسن لحصل ذكرها ! »

ومما يتصل بها المعنى ، ما حكاه أبو الفرج في (٨ : ١٤٤ س
أو ٩ : ٢٥٠ د) :

« قال مؤلف هذا الكتاب : للنسوب إلى الخلفاء من الأغانى
والمصنوع بهم منها ، لا أصل لجله ولا حقيقة لأكثره ، لا سيما

(١) هو يزيد الثاني ابن عبد الملك الأخرى ، كانت خلافتها سنة ١٠١

(١) رمز إلى طبعة الساسى بحرف (س) وإلى طبعة دار الكتب

فهل كان أبو الفرج في مواقفه النقدية يتعمد الإساءة إلى أقرانه ومعاصره ممن آلف في موضوع الأغانى وما إليها؟ أم إنه كان على حق فيما فند وزيف ، وقد وقفنا على رأى له في كتاب من هذا القبيل ، نقله إلى القارى ، لما فيه من مغزى أدبي ، قال : « وذكره جحظة [الكلام هنا على أحمد النّصبيّ النّخعيّ الطنبورى] في كتاب الطنبورين ، فأق من ذكره بشيء ليس من جنس أخباره ولا زمانه ، وثله فيما ذكره ، وكان منزهة عننا الله عنه — في هذا الكتاب ، أن يثلب جميع من ذكره من أهل صناعته بأقبح ما قدر عليه ، وكان يجب عليه ضد هذا ، لأن من انتسب إلى صناعة ، ثم ذكر متقدّم أهلها ، كان الأجل به أن يذكر محاسن أخبارهم وظريف قصصهم ومليح ما عرفه منهم ، لا أن يثلبهم بما لا يعلم وما يعلم . فكان فيما قرأت عليه من هذا الكتاب أخبار أحمد النّصبي ، وبه صدر كتابه فقال : (١)

وحسب القارى أن يسأل لماذا حمل أبو الفرج على جحظة في موقفه من أحمد النّصبي ؟ وتدبره لأنه ثلب من تقدمه ، وهو نفسه لم يطبق هذا البدأ في موقفه من ابن خرداذبة على ما صرنا بنا

٧ - هتاف البحث

رأى القارى في تضاهيف هذا المقال أن ابن خرداذبة كان إلى جانب مركزه الاجتياحي مؤلفاً في ميادين الكتابة المختلفة ، فقد صنف في التاريخ والبلدان والأنواء والأنساب والموسيقى والمنادمة والشراب وغير ذلك . . . وأن الكتبة اتسموا بشأنه فريقين : له وعليه . فأفراد الفريق الأول وعلى رأسهم للمسعودى مدحوه ، وقرظوا كتبه ؛ والفريق الثانى ، وعلى رأسهم الأصمغانى حلوا عليه حملة شعواء فأوسعوه قعداً وتجريحاً

ومن المسير علينا أن نبدي رأياً أو نقول قولاً في هذا الموقف الذى ينقض أوله آخره ، ونحن في وقت نتلس فيه تأليف ابن خرداذبة التى دارت عليها رحى الخصومة ، فلا نجد منها شيئاً ما ، كما أننا لا نجد أغلب الكتب التى تناظرها في البحث لتتضح صحة ما قيل فيها ، وقد يتاح حينذاك الحكم لها أو عليها !

(بغداد) كوركييس هوراد

ما حكاة ابن خرداذبة ، فإنه بدأ بعمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فذكر أنه تفتى في هذا البيت :

كأن راكها غسن بمروحة

ثم والى بين جماعة من الخلفاء واحداً بعد واحد ، حتى كان ذلك عنده ميراث من موارث الخلافة أو ركن من أركان الإمامة لا بد منه ولا ممدل عنه ، يخبط (يعنى ابن خرداذبة) خبط المشواء ويجمع جمع حاطب الليل ... !
أو ما سطره في (١٣ : ١١٠ ص) :

« وذكر ابن خرداذبة ، أن المهدي اشتراها (اشترى الجارية بصيص) وهو ولي المهدي ، سراً من أبيه ، بسبعة عشر ألف دينار ، فولدت منه عليّة بنت المهدي . وذكر غير ابن خرداذبة ، أنه غلط في هذا ، وإن الذى صح ، أن المهدي اشترى بهذه الجملة جارية غيرها وولدت عليّة ... »

فهذه ، على ما رأيت ، آراء صريحة ، طمن فيها أبو الفرج بصاحبه ، وضمت مروياته . وليس بوسعنا أن نبدي فيها رأياً للسبب الذى قدمناه في عمل آخر من هذا المقال . ونضيف الآن إلى ذلك ، أن عشرات الكتب في النناء والمنادمة والشراب وما اتصل بهنه الموضوعات من قريب أو بعيد ، مما صنفه أقدم الكتبة كاسحق الموصلى ، ويحيى بن أبى منصور الموصلى ، وعبد الله بن هارون ، ويونس الكاتب ، وعمر بن بانه ، وحسن ابن موسى النّصبي ، وأبى حشيشة الطنبورى ، وجحظة ، وأبى أيوب المدينى ، وغيرهم ، كل تلك الأسفار قد ضاعت واتمى أثرها ، ولم يبق لنا منها سوى أسماؤها الجميلة التى حفظها لنا ابن التديم وغيره في تصانيفهم

هذا ، وقد ذكر أبو الفرج زميله في أما كن أخرى من أغانيه ، ونقل عنه أخباراً ومرويات لا فائدة من إيرادها هنا . غير أنه في بعض نقوله كان يمر به دون ما تجزئ ، ذلك إذا راعى جانب المدح والاعتدال فى القول ، وإلا ، فلا أقل من أن يتوج ما ينقله عنه بعبارة « وزعم ابن خرداذبة » (١) ، ولا يخفى على اللبيب ، ما تنطوى عليه لفظة « زعم » !

(١) الأغانى (٥ : ١٥٣ ص ، أو ٦ : ٦٤ د)

(١) كافى (٦ : ١٦١ و ٨ : ٢٧ د) من الأغانى